Vol 08 / Issue 32 / june 2024
ISSN 2568-6739 p334-361

Journal of social sciences
Democratic Arabic Center For Strategic, Political & Economic Studies, Germany-Berlin

The End of History by Fukuyama: Philosophical Roots and Foreseeing the World's Future

EL MABROUK MHANI*

Faculty of Humanities and Social Sciences ibn tofail university kenitra - Morocco

mhanielmabrouk@gmail.com

https://orcid.org/0009-0007-1237-8034

FARID ABDELLAOUI

Ministry of National Education- Morocco

bongaryad@gmail.com

https://orcid.org/0009-0000-0682-7023

Received: 22/04/2024, **Accepted**: 25/05/2024, **Published:** 10/06/2024

Abstract: Despite Francis Fukuyama's ability to engage in various fields of knowledge, and a broad understanding of history, political philosophy, economics, and philosophy, his vision remains purely conceptual -There is a widespread misconception that you've entered the door, but the reality is completely the opposite. America is still deeply rooted in history, exercising its power and strength in a chaotic Hobbesian world. For these reasons and more, Fukuyama's thesis falls short of the major philosophical breakthroughs reached by Hegel, Hobbes, and Rousseau. Fukuyama does not attempt to establish a coherent and comprehensive philosophical theory but presents analyses that are more like everyday debates than philosophical lectures

Keywords: Fukuyama, The End of History, Hegel, The Will to Recognition, The West

**Corresponding author*

مجلة العلوم الإجتماعية
المركز الديمقراطي العربي ألمانيا-برلين
المجلد:08/العدد 32/جوان 2024
ISSN 2568-6739 ص334-361

نهاية التاريخ عند فوكوياما الجذور الفلسفية وإستشراف مستقبل العالم

المبروك امهني *

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة-المغرب

mhanielmabrouk@gmail.com

https://orcid.org/0009-0007-1237-8034

فريد عبدلاوي

وزارة التربية الوطنية والتعليم الأولي والرياضة- المغرب

bongaryad@gmail.com

https://orcid.org/0009-0000-0682-7023

تاريخ الاستلام: **2024/04/22** - تاريخ القبول: **2024/05/25** - تاريخ النشر: 2024/06/10

ملخص: بالرغم من قدرة فوكوياما عل متابعة العديد من المجالات والاختصاصات المعرفية واطلاعه الواسع، سواء في فلسفة التاريخ أو الفلسفة السياسية، أو الاقتصاد أو العلم، إلا أن تصوره سيبقى تصورا أيديولوجيًا محضا. لأنه يستهدف "تسويق وهم" مفاده أن العالم الغربي دخل مرحلة الفردوس المابعد تاريخي من الازدهار والأمن، وتحقيق السلام الدائم الذي دعا إليه كانط. والواقع على العكس تمامًا فأمريكا لا زالت غارقة في التاريخ وتمارس قوتها وجبروتها في عالم هوبز الفوضوي. لهذا وأمور أخرى لا ترقى أطروحة فرانسيس فوكوياما "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" إلى المنعطفات الفلسفية الكبرى التي حققها هيغل وهوبس وروسو ...، على اعتبار أنه لا يروم تأسيس مذهب فلسفي متماسك ومتكامل، بقدر ما أنه لا يدلي سوى بمجموعة من التحليلات الأقرب إلى السجال اليومي منها إلى الخطاب الفلسفي

الكلمات المفتاحية: فوكوياما، نهاية التاريخ، هيجل، الرغبة من أجل الإعتراف، الغرب

* المؤلف المرسل

مقدمة

يعد القرن الثامن عشر والتاسع عشر قرنا التقدم في ميادين العلم والفلسفة، نتيجة للثورة الصناعية الحديثة التي انطلقت من إنجلترا إلى جانب الثورة الفرنسية سنة 1879، التي أطاحت بالبنى الاقتصادية والاجتماعية الإقطاعية لتفتح المجال أمام صعود البورجوازية الرأسمالية التي غيرت ملامح المجتمعات الغربية وأدخلتها في طور جديد من التقدم والازدهار. وكان ذلك نتيجة لتطور الفكر الاجتماعي والسياسي مع فلسفة الأنوار، وأمام هذه التحولات انبرى هيغل وماركس لتأمل تاريخ البشرية وفحصه من اجل اكتشاف القوانين المتحكمة فيه.

إن المؤرخ المحترف لا يبحث في مفهوم التاريخ، وإنما يكتفي بالقول بأن هذا الموضوع من اختصاص الفلاسفة، ولمعرفة رؤية الفلاسفة لمعنى التاريخ نذكر جملة من هذه الآراء، فهو عند سقراط (Socrate) يدل على المعرفة، وعند أرسطو(Aristote) يدل على مجرد ركام من الوثائق، ... والتاريخ عند بيكُن(Francis Bacon) يقوم على الذاكرة، إذ أنه يتعارض من جهة مع الشعر، وهذا موضوعه أيضا الفردي لكنه الانفرادي الوهمي، ويقابل من جهة ثانية مع الفلسفة، وهذا موضوعها عام وآلتها العقل، أما التاريخ عند فيكو (Vico) هو سجل لنشأة المجتمعات الإنسانية وما تصطنعه من نظم، وهو عرض لنمو هذه المجتمعات وتطورها وحركتها شدًا وجذبًا ومدًا وجزرًا، ...(راهي، 2017، ص 14–15–16)

أما عبد الرحمان إبن خلدون يعرف التاريخ قائلًا "فن التاريخ من الفنون التي تتداوله الأمم والأجيال، وتنشد إليه الركائب والرحال وتسمو إلى معرفته السوقه والإغفال وتتنافس فيه الملوك والإقبال ويتساوى في فهمه العقلاء والجهال، إذ هو في ظاهره لا يزيد على أخبار الأيام والدول والسوابق من القرون الأولى" والعبارة تفيد أن للتاريخ ظاهر هو مجموع الأخبار والتقويمات، ثم يقول "وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق، وجدير بأن يعد في علومها وخليق" (قيس ناصر راهي، 2017، ص 15) ما يعني انه علم لفهم الوقائع والأحداث وأسباب حصولها الأمر الذي يجعله فرعا من فروع الفلسفة.

يعتبر القرن العشرين قرنا متميزًا في تاريخ الحضارة الغربية، كيف لا وهو القرن الذي شهد صعود الأنظمة الشمولية وبروليتارية إلى سدة الحكم في العديد من الدول الأوربية، كألمانيا وإيطاليا والاتحاد السوفياتي. وأمام هذا الوضع الجديد الذي خلفته مجموعة من التطورات الاجتماعية والسياسية والتاريخية، ما كان من هذه الأنظمة إلا أن تتقاتل في حرب عالمية مدمرة، انتهت بقيام نظام عالمي ثنائي القطب في إطار ما سمي بـ"الحرب الباردة" بين المعسكر الشرقي بعقيدته الشيوعية، والمعسكر الغربي بتوجهه الرأسمالي الليبيرالي.

وفي العقدين الأخيرين من القرن العشرين بدأ الوهن يدب في المنظومة السوفياتية التي لم تستطع أن تصمد طويلًا لتنهار سنة 1991. لقد شكل انتهاء الحرب الباردة بسقوط الاتحاد السوفياتي بداية ثورة جديدة في المفاهيم ودلالاتها خصوصا على صعيد النظرية السياسية، إسوة بالتبدل الذي شهدته قواعد العلاقات وإدارتها بين الدول في ظل نظام عالمي متغير هو الآخر، وكان لضخامة الحدث وما ترتب عليه من تغير جوهري في شكل النظام العالمي القائم، وعمله ومعاملات توزيع القوة والقدرة في إطاره، وفي تشكل العلاقات الدولية القائمة ومضمونها وتفاعلاتها، الأثر البالغ في ردة الفعل العالمية الرامية إلى إعادة النظر في الكثير من المسلمات والثوابت والأدبيات السياسية والدولية.

وأمام هذه التحولات العالمية الكبرى خرج فرانسيس فوكوياما ليبشر الإنسانية" بنهاية التاريخ" بجرأة لا تخلوا من حماسة متهورة، إذ اعتقد أن التاريخ قد شارف على نهايته وذلك من خلال الانتصار الذي حققته الديمقراطية الليبيرالية على منافسيها من الأنظمة الشمولية، وأصبحت تمثل حسب تصوره أفق البشرية جمعاء.

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في إعادة مساءلة حكاية (أطروحة) فوكوياما نهاية التاريخ والإنسان الأخير، إنطلاقا من المستجدات التي تنطرح بشكل يومي على الساحة العالمية، وفي ظل التغيرات والتصدعات التي يشهدها العالم بشكل دوري، ومع حدوث ثورة في عالم الذكاء الصناعي، ظهرت قوى أخرى، وتدوين تاريخ ذكي، هذا وأشياء أخرى تضع تمثلاث فوكوياما حول نهاية التاريخ في إمتحان حقيقي.

إشكالية البحث

تتمحور إشكالية البحث حول الأطر المرجعية التي انطلق منها فوكوياما لإعلان بشارته نهاية التاريخ. بالرجوع إلى رؤية فوكوياما لنهاية التاريخ التي تنبني على فكرة مفادها أن الديموقراطيات الليبيرالية هي النقطة النهائية لتطور الإيديولوجيات البشرية، وان الأنظمة الليبيرالية تخلصت من تناقضات وعيوب أنظمة الحكم القديمة. ومن هنا حاول فوكوياما إيجاد خط تماس بين أطروحته ورؤية كل من هيجل وماركس لنهاية التاريخ. لذا ينطرح أمامنا السؤال الرئيس وهو:

ما هي الأطر المرجعية لنهاية التاريخ عند فوكوياما؟ ومن خلال التساؤل الرئيس تتفرع الأسئلة الفرعية الآتية:

كيف استثمر فوكوياما هذه المرجعيات؟ ما الذي حمل فوكوياما على القول بنهاية التاريخ؟ ماهي أهم النظريات السياسية التي رافقت إعلان نهاية التاريخ؟ ما مستقبل الحضارة الغربية بوصفها الحامل الحضاري والتاريخي لنهاية التاريخ؟ أين يكمن قصور تصور فوكوياما؟

خطة البحث

تفصيلا لموضوع البحث (نهاية التاريخ عند فوكوياما الجذور الفلسفية وإستشراف مستقبل العالم) ارتأيت تقسيمه إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة كالآتي:

المقدمة: عبارة عن تقديم عام للبحث، مع ذكر إشكالية البحث وأهميته. أما المبحث الأول فقد خصص لفرضيات أطروحة نهاية التاريخ عند فوكوياما، وبمطلب تضمن تصور هيجل للتاريخ بين الجدل وصراع الرغبة من أجل الاعتراف. أما المبحث الثاني فجاء تحت عنوان نهاية التاريخ ومستقبل العالم، وبثلاثة مطالب: الأول منهما تناول صدام الحضارات وسيرورة التاريخ. فيما جاء المطلب الثاني أي مستقبل للحضارة الغربية في ظل التوترات الراهنة؟ أما المطلب الثالث والأخير فقد خصص لنقد أطروحة فوكوياما. أما الخاتمة فهي بمثابة خلاصة وأهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها طيلة البحث.

المبحث الأول: فرضيات أطروحة نهاية التاريخ

المطلب الأول: تصور هيغل للتاريخ بين الجدل وصراع الرغبة من أجل الإعتراف

من بين التراث الفلسفي الكبير والمتنوع، لم يجد فرانسيس فوكوياما ضالته أو لنقل المرجع الأساسي لنظريته في التاريخ سوى عند الفيلسوف الألماني هيغل. ويبن فوكوياما لجوءه إلى هيجل بقوله: أنه يعطينا مفهومًا لليبرالية هو أكثر نبلا من مفهومي هوبس ولوك، فصياغة مبادئ الليبرالية عند لوك شهدت في الوقت تقريبًا بروز استياء ملحاح اتجاه المجتمع الذي تولده هذه المبادئ، واتجاه الإنتاج النموذجي لهذا المجتمع البرجوازي، هذا الاستياء مرده في نهاية التحليل واقع أخلاقي فريد، انه لبرجوازي ينشغل أولا برفاهيته المادية الذاتية، فهو لا يتحلى بفضيلة الاهتمام بالصالح العام، ولا يعنى مطلقًا بالمجموعة الإنسانية التي تحيط به، وبالاختصار فهو أناني، وهذه الأنانية الفردية كانت تشكل لب انتقادات المجتمع الليبرالي أكان من جانب اليسار الماركسي أم من اليمين الأرستقراطي أو الجمهوري أما هيجل فانه يعطينا على عكس هوبس ولوك مفهومًا للمجتمع الليبرالي يرتكز على الجزء اللاأناني من الشخصية الإنسانية ويحاول المحفظة على هذا الجزء كنواة للمشروع السياسي الحديث.(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 152) ، وهنالك سبب ثاني دفع فوكوياما إلى التعويل على هيجل بحيث يقول: إن فهم التاريخ وكأنه "صراع للإعتراف" يعطي فعلا نظرة مضيئة ومفيدة عن العالم المعاصر.(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 152)

لقد تبلورت مع هيغل لأول مرة أفكار فلسفية حول التاريخ. هذا لا يعني بطبيعة الحال أنه من قبل لم تكن هناك مقاربات فلسفية للتاريخ وأحواله خاصة مع إبن خلدون ... بل أن المقصود من كلامنا هو أن هيغل كان صاحب نَظْرَة أعمق وأشمل للتاريخ في العصر الحديث، كان إذن لتصور هيغل حول التاريخ بالغ الأثر في الفلسفة الماركسية ما يعكس أهمية هذا الفيلسوف عندما يتعلق الأمر بالتاريخ.

لقد إستلهم فوكوياما النمودج الهيغيلي وهو يعلن " نهاية التاريخ " فقد وجدت هذه الفكرة لأول مرة مع هيغل الذي جادل بأن التاريخ إنتهى مع الليبيرالية الديموقراطية. إن كل ما سبق يدعونا لطرح التساؤل التالي:

كيف يتصور هيغل التاريخ؟ وعلى أي أساس يتقدم؟

أولا: هيغل والتاريخ

حضر مفهوم الجدل كمفهوم مركزي ورئيسي في فلسفة هيغل، ويمثل هذا الجدل جوهر فلسفة هيغل عندما يتعلق الأمر بالتاريخ، وقد ذكرت الموسوعة الفلسفية المختصرة أن الجدل "يستمد اسمه من الفعل اليوناني يحاور وكان في الأصل معناه . فن الحوار أو النقاش أو الجدال." (جوناثان ري & وج. أو. أرمسون، 2013، ص 124) وقد اشتهر سقراط أول من استخدم هذا الفن أو المنهج في حواراته مع السوفسطائيين والذي أطلق عليه حينئذ" بالمنهج التوليدي "يمثل الجدل في فلسفة هيغل الأساس لأي فكرة بمعنى أنه لكل فكرة نقيضها وضدها "، والفكرة ونقيضها يطلق عليه المركّب. فالتاريخ تحركه ثلاثية جدلية هي الأطروحة والنقيض والمركّب."(مفيد الزيدي، 2006)

إن فلسفة التاريخ عند هيغل لا تعني سوى دراسة التاريخ انطلاقًا من العقل أي إن التفسيرات الاقتصادية والمادية للتاريخ تبدو ناقصة، وغير مكتملة إن نظرنا إليها من منظار هيغل، بل تستلزم استحضار عنصر آخر هو العقل أو الفكر. يختلف مفهوم الجدل بين هيغل وسقراط وأرسطو فإذا كان هذا الأخير يستهدف منه إيجاد البراهين التي تؤيد رأيه، أي أنه مجرد منهج إستدلالي، فإن هيغل لم يعتبره مجرد عملية استدلالية بل تعداه إلى جعله المفهوم الذي يحكم التاريخ. يتألف الجدل من حركة ضرورية ثلاثية تنقل الأطروحة إلى النقيض إلى المركّب، و يقول هيغل شارحًا ذلك كتالي: إننا في البداية نتناول فكرة ناقصة فتؤدي متناقضاتها إلى أن يحل محل نقيضها، غير أن هذا النقيض تظهر فيه العيوب نفسها فلا يبقى من طريقة الخلاص سوى أن ندمج بين محاسن التصورين في تصور ثالث ومع هذا الفلاح من شأنه أن يحل المشكلة السابقة ويتقدم بنا خطوة نحو الحقيقة إلا أنه بدوره يكشف عن متناقضات فينشأ من جديد موضوع ونقيضه، ثم يرتفع هذا التناقض بينهما في تآلف جديد حتى نصل إلى مقولة الفكرة المطلقة.(أحمد محمود صبحي، 1975، ص 204)

لقد قدم هيغل نظرته للتاريخ من خلال كتابه "محاضرات في فلسفة التاريخ" بحيث لا يتناول فيه عرض ملاحظات عامة حول التاريخ أو عرض تاريخ أمة من الأمم بل يتناول فيه التاريخ في كليته وشموليته وهو بذلك يعرض المناهج التي يكمن أن ندرس بها التاريخ وهي:

التاريخ الأصلي: والمقصود به هو التاريخ الذي يكتبه المؤرخ وهو يعيش أصل الأحداث ومنبعها" فهو ينقل ما يراه أمامه أوما يسمعه من الآخرين كما هو، وهو حين ينقل الأحداث فإنه يحملها إلى عالم التصور العقلي فتتحول بذلك من إطارها الخاص إلى إطار داخلي هو تصور عقلي تمامًا(هيجل، 2007، ص 30)

التاريخ النظري: يعيد فيه المؤرخ كتابة الأحداث التاريخية السابقة على عصره ما يجعل من كتابته عملا يتجاوز روح عصره يعمل فيه المؤرخ على استعادة الأحداث الماضية ولا يعدو مجرد سرد للأحداث بحيث يسقط المؤرخ روح عصره على العصور السابقة" إن المؤرخ النظري في هذه الحالة سوف يبدو وكأنه يتعسف في ذكر الوقائع التاريخية لأنه يسقط أفكار عصره ومصطلحاته ولغته وثقافته باختصار يسقط روح عصره هو على العصور الغابرة.(هيجل، 2007، ص 35)

التاريخ الفلسفي: يشكل كل من التاريخ الأصلي والنظري المادة الأولية لكتابة التاريخ الفلسفي ويقصد بالتاريخ الفلسفي عند هيغل "دراسة التاريخ من خلال الفكر ومرد ذلك إلى كون الإنسان لا يكون إلا فكرا واعيًا أو كما يقول هيغل: "الفكر مبتوت في كل ما هو بشري."(هيجل، 2007، ص 24) بحيث يبدأ التاريخ مع هيغل مع ظهور الوعي إذ إن الفكر الأسطوري للمجتمعات ينتهي قبل التاريخ الإنساني وبذلك كان انفصال الإنسان عن الطبيعة بمثابتة بداية التاريخ وفي ذلك يقول: "الدراسة الفلسفية للتاريخ تعني إذن دراسة التاريخ من خلال الفكر إن التاريخ هو تاريخ الإنسان والفكر جوهري بالنسبة إليه فهو الخاصية التي تميزه عن الحيوان."(هيجل، 2007، ص 41) وبهذا المعنى لن تغدوا أفعال الإنسان وأعماله مجرد وقائع منقولة، إذ يجب على المؤرخ النظر لكتابة التاريخ ومن ثم يتعدى ذلك نحو تفسير الوقائع التاريخية وربطها ببعضها.

إن الدراسة الفلسفية للتاريخ نابعة من الفكرة الهيغيلية الأساسية عن العقل والتي تقول:" إن العقل سيطر على العالم غير أن العقل الذي يقصده هيغل ليس هو العقل المتعالي ولا هو كذلك

عقل الأفراد. إنما مقصوده بالعقل هو العقل الكلي المحايث للعالم، لقد قسم هيغل المراحل التي مر بها العقل (الروح) في سيره وتقدمه نحو الحرية إلى ثلاث مراحل:

الحضارات الشرقية القديمة الصينية والهندية والمصرية إذ تتميز هذه المرحلة بكون جميع المواطنين عبيدا للحاكم.

حضارة الإغريق والرومان: تميزت هذه المرحلة باتساع نطاق الحرية عما كان عليه الأمر عند الأمم السابقة فقد تمتع المواطنين ببعض الحقوق والحريات.

مرحلة الأمم الجرمانية: تتحقق الحرية المطلقة والمعترف بها من قبل القوانين فقد وصلت الأمم الأوربية بعد الثورة الفرنسية إلى وعي مفاده أن لكل فرد حرية يجب احترامها، فالعقل تجسد أخيرًا في حكم الدولة المدنية الحديثة باعتبارها تنظيمًا عقلانيا قائمًا على مبادئ العقلانية والقانون والحق والحرية والتسامح وكلها مفاهيم تبلورت مع فلسفة الأنوار.

ثانيا: صراغ الرغبة من أجل الإعتراف

يتبن لنا من خلال ما سبق أن الجدل يشكل جوهر التاريخ إذ يتجسد بصورة من الصور في الصراع من أجل نيل الاعتراف، هذه الخاصية هي التي تميز التاريخ البشري حسب هيغل وهي كذلك الأداة المحركة له. يختلف الإنسان عن الحيوان حسب هيغل اختلافًا جوهريًا فرغبات الإنسان تتعدى رغبة البقاء والنضال من أجل الحياة والحفاظ على الذات والنوع إلى أبعد من ذلك تمامًا فإذا كان للإنسان شأنه شأن الحيوان رغبات تتعلق بالمأكل والمشرب والملبس والمأوى فإنه يتطلع مع ذلك إلى ما يسميه هيغل انتزاع الاعتراف من الآخرين "إن رغبة بأن يعترف بالإنسان ككائن حي مشحون بالكرامة تقود إنسان بداية التاريخ إلى صراعات حتى الموت من أجل الاعتراف." (هيجل، 2007، ص 30) إن معركة نزع الاعتراف هذه والتي اتخذت أشكالا متعددة عبر التاريخ بدءًا من السيد والعبد أفضت في النهاية إلى بروز طبقتين في المجتمع طبقة الأسياد وطبقة العبيد ففي ظل انتزاع الأسياد الاعتراف من العبيد الذين دفعهم خوفهم الطبيعي من الموت إلى الاستسلام غير أن هذا لم يشف غليل الأسياد كما وضع العبيد في موقف من الذل والمهانة.

دفع هذا الوضع المجتمع البشري إلى البحث عن نظام سياسي يسود فيه الاعتراف الشامل والمتبادل هذا الأمر الذي تحقق حسب هيغل في نموذج الديموقراطية الليبيرالية أو ما يسميه كوجيف "الدولة الشمولية المنسجمة"(شادية دروري، 2006، ص 57) والتي تتبنى نموذجًا ليبراليا يدافع عن مبادئ الحرية والكرامة الإنسانية على أساس القانون الوضعي.

يبدو مفهوم الرغبة في الاعتراف مفهومًا غير مألوف، لكنه قديم قدم تراث الفلسفة السياسية الغربية إذ تعود جدوره للفيلسوف اليوناني أفلاطون الذي قسم النفس الإنسانية إلى جزء راغب و جزء عاقل وآخر سماه بالتيموس(thimos) إن هذا الجزء الأخير يدفع الإنسان نحو البحث عن الاعتراف بكرامته "فهو يشبه عند الإنسان إحساسًا فطريا بالعدالة."(هيجل، 2007، ص 35) لقد كان هيغل يرفض أن يبني نظريته حول الطبيعة البشرية لأنه يعتقد أن الإنسان حر وغير مقيد بشروط فالإنسان الأول حسب تعبير فوكوياما كان يتقاسم مع الحيوانات الحاجات الضرورية الأكثر أساسية وهو من هذه الزاوية لا يشكل إلا جزءًا من العالم المادي الطبيعي، لكنه يختلف عن الحيوان من جهة أنه يسعى لأشياء غير مادية تمامًا إذ يرغب أن يعترف به سائر الناس من حوله. وفي ذلك يقول فوكوياما: "حسب هيغل لا يمكن للفرد أن يعي نفسه أي أن يعي هويته الإنسانية المتميزة دون أن تعترف به الكائنات الإنسانية الأخرى."(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 153).

إن الرغبة في أن يعترف بالإنسان ككائن دو كرامة ووجود هي ما يدفع الإنسان الأول إلى الدخول في صراع عنيف ومميت الأمر الذي ينتهي بإقامة جدلية السيد والعبد.

تمحورت فلسفة هيغل وماركس على الصراع التاريخي من أجل الاعتراف بالإنسان وحقوقه السياسية والاجتماعية، فكان هناك اختلاف في التفسير وإلتقاء في الغاية، حيث يرى هيغل أن المجتمع يقوم على صراع الأفكار بين الطبقات الاجتماعية المتناقضة التي ينتج عنها حالة جدلية إذ تنهار الطبقة الأضعف وتنتصر الأقوى مكونة حالة جدلية أخرى فيها تناقضاتها الفكرية التي تنتقل هي الأخرى لحالة جديدة أو بمعنى آخر يؤدي الصراع الفكري إلى حل تناقض جديد وهكذا إلى أن تحل جميع التناقضات. وقد أوضح هيغل ذلك من خلال تاريخ الحضارات بدأً من

الحضارات القديمة، حيث كان المجتمع يعرف تشكيلة اجتماعية مكونة من"ملك العبيد" ثم انتقل إلى "ملك مفوض وسادة وعبيد" إلى أن وصل إلى"ملك وإقطاع وعامة الناس."

أما فلسفة كارل ماركس فقد ارتكزت على المادية الجدلية حيث أكد ماركس بأن المجتمع يقوم على"الصراع الطبقي" بين البورجوازية والبروليتاريا. إن التاريخ بهذا المعنى تحكمه قوانين بإمكان العقل الإنساني إدراكها واستنباطها من خلال دراسة التاريخ، تتميز هذه القوانين بالحتمية غير أنها ليست مشابهة لقوانين العلوم الحقة، بل هي متعلقة بطبيعة العمل والإنتاج وطريقة توزيع الثروات بين المواطنين لذا فإنّ الاقتصاد هو المحدد لطبيعة المجتمع ونظامه السياسي والإديولوجي.

إذا كان التاريخ ينتهي بوعي الحرية بالنسبة لهيجل، فإن نهاية التاريخ بالنسبة لماركس سينتهي التاريخ مع الشيوعية، ومن هنا أوضح ماركس إن مرحلة جديدة تبدأ بعد أن يوضع الإنتاج على أساس اشتراكي، ويختفي استغلال الإنسان للإنسان، أي سيتم الانتقال إلى المجتمع الشيوعي، وهو يرى أن الاشتراكية ليست إلا مرحلة أولى من مراحل المجتمع الشيوعي، وهي مرحلة قصيرة نسيبًا للانتقال من مجتمع قائم على استغلال طبقة لطبقة أخرى إلى مجتمع لا طبقي كامل التطور .(موريس كورنفورث، 1990، ص 283)

المبحث الثاني: نهاية التاريخ ومستقبل العالم

المطلب الأول: صدام الحضارات وسيرورة التاريخ

أنهى سقوط الإتحاد السوفياتي الحرب الباردة وأوجد نظامًا عالميًا جديدًا، فبدأت التنظيرات الفكرية لهذا النظام بأطروحة "نهاية التاريخ" ثم تبعتها أطروحة "صدام الحضارات" لصامويل هنتنجتون. يحمل تصور هنتنجتون بناءًا شاملًا يشرح فيه نزاع الحاضر والمستقبل محددًا بذلك الملامح الرئيسية للنظام العالمي، إذ يحاول أن يتنبأ بمستقبل العالم والعلاقات الدولية في القرن الواحد والعشرين، يركز هنتنجتون جهوده النظرية على الحضارة بوصفها مادة التحليل الأساسية.

تعود نظرية صراع الحضارات إلى مقال نشرته (مجلة الشؤون الخارجية Samuel P. Huntington،(1993 Foreign Affairs 1993) قبل أن يعود هنتنجتون بعدها بثلاث

سنوات ويقدم كتابه – "صدام الحضارات" حيث أعاد صنع النظام العالمي الذي يشرح فيه بالتفصيل أفكاره وتصوراته لمستقبل العلاقات الدولية بين الحضارات العالمية مؤكدًا على خاصية الصدام الحضاري. لقد تبين لنا مع هيغل وماركس أن الصراع هو محرك التاريخ والسمة الجوهرية لتطور المجتمعات، إلا أن الفكرة التي نحن بصددها تختلف جوهريًا عن كل أشكال الصراع المعروفة.

أولا: الحضارة تحديدات

من الصعوبة بما كان أن نجد تعريفًا واحدًا جامعًا مانعًا لمفهوم الحضارة، نظرًا لامتدادات المفهوم في مجالات التاريخ والسياسة والاجتماع فتعاريف الحضارة مختلفة ومتعددة. نطالع عند وول ديورانت تعريفًا يقول فيه: "الحضارة نظام اجتماعي يعين الإنسان في إنتاجه الثقافي، وإنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة: الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الأخلاقية، ومتابعة العلوم والفنون. وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء. وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تسنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وازدهارها". ومن ثم فإن الحضارة نظام من الخبرات الاقتصادية والسياسية والعلمية، تعمل على تنمية الإنتاج الثقافي للإنسان.

أما هنتنغتون يعرفها باعتبارها "أعلى تجمع ثقافي من البشر وأعرض مستوى من الهُوِيَّة الثقافية يمكن أن يميز الإنسان. وهي تعرف بكل العناصر الموضوعية مثل اللغة التاريخ والدين والعادات والمؤسسات والتحقق الذاتي للناس"، فكونها تجمع ثقافي فإنه تشمل العمران والاجتماع والاقتصاد وتتحدد انطلاقًا من اللغة والتاريخ والدين باعتبارها أعرض مستوى من الهُوِيَّة الثقافية. يحدد هنتنجتون سبع حضارات عالمية هي: الصينية، الهندية، الإسلامية، الأمريكية اللاتينية، الغربية، الروسية، اليابانية (الإفريقية احتمال).

يعدد هنتجنتون المبادئ الرئيسية لكل حضارة على الشكل الآتي:

الحضارة الغربية:

تتبني الحضارة الغربية حسب هنتنغتون على عدة مقومات هي: التراث الكلاسيكي الذي يتضمن الفلسفة اليونانية والعقلانية والقانون الروماني، والكاثوليكية والبروتستانتية، فالمسيحية في نظره هي اهم سمة مميزة للحضارة الغربية اضافة الى اللغات الأوربية. "اللغة هي التي تلي الدين كعامل مميز لشعب ثقافة ما عن شعب ثقافة أخري." إضافة إلى العَلمانية كمبدأ لفصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية المؤسسة على حكم القانون والتعددية الاجتماعية.

الحضارة الصينية:

يصف هنتنغتون الحضارة الصينية من خلال نموذجين الأول تاريخي: كانت الصين تضم تاريخيا منطقة صينية كبيرة تشمل الكوريتين والفيتنام وجزر ليوشيو وأحيانا اليابان، بالإضافة إلى المناطق الداخلية من آسيا مثل المغول والإيغور والأتراك وسكان التبت التي هي جزء من الصين رغم انها تتبع لحضارات أخرى. أما النموذج الثاني الذي تتحدد به الحضارة الصينية هو الجنس أي الصينيين هم نفس الجنس والدَّم والثقافة.

الحضارة الإسلامية:

إن الحضارة الإسلامية على عكس الحضارة الغربية من وجهة نظر هنتنغتون، حيث إن قمة الولاء السياسي في الحضارة الغربية للدولة القومية أما في الحضارة الإسلامية فهو للقبيلة والعشيرة.

يرى هنتنغتون أن الدول العربية هي دول اعتباطية لأن حدودها لا تتطابق مع حدود الجماعات الإثنية مثل البربر والأكراد، وجاءت هذه الحدود نتيجة للاستعمار بعد سقوط الإمبراطورية العثمانية التي تركت الحضارة الإسلامية دون دول مركز. إن "غياب دولة مركز إسلامية عامل مساعد وأساسي على الصراعات الخارجية والداخلية المستمرة التي تميز الإسلام."

إن رؤية هنتنجتون للحضارات وصدامها مقرون بعلاقاتها مع الغرب حيث أنه لا يرى أي تأثير لليابان، فاليابانيون وإن كانت لهم حضارة متميزة إلا أنهم أصبحوا جزءًا من الغرب، أما الحضارة الروسية والكثير من دولها إستقلت وتعتبر اليوم مكونا من مكونات الغرب أما الحضارة الهندية فهي تعرف تمزقا داخليًا بسبب الطوائف والإثنيات. ولعل ما يلفت انتباه إلى تصنيف هنتنجتون للحضارات هو عدم التزامه بمعيار واحد للتصنيف " فالحضارة الغربية نسبة إلى الغرب

وهو جهة جغرافية، والحضارة الكونفوشيوسية نسبة إلى كونفوشيوس الحكيم والفيلسوف الصيني، والحضارة اليابانية نسبة إلى البلد، والحضارة الإسلامية نسبة إلى دين والهندية نسبة إلى بلد والسلافية الأورثوذكسية نسبة إلى عرق ودين في آن واحد، أما الحضارة الأمريكية اللاتينية والحضارة الإفريقية فنسبة إلى قارة وعرق" (محمد عابد الجابرى، 1997، ص 103) وهذا الأمر في حد ذاته يعتبر إخلالًا في المنهجية العلمية لأن هذه الأخيرة تتطلب تحديد المعايير والمفاهيم وبالتالي كان على هنتنجتون أن يصنف جميع الحضارات بناء على معيار واحد.

ثانيا: صدام الحضارات بوصفه نموذج

يحدد صامويل هنتنغتون معالم النظام العالم الجديد في كونه نظامًا متعدد الأقطاب، تتنازعه قِوَى ثقافية وحضارية مختلفة ومع سقوط الاتحاد السوفييتي بدأ الغرب يفقد تأثيره على العالم ذلك أنه خرج منهكًا من الحرب الباردة، وأمام هذا التراجع للغرب برز على الساحة الدولية لاعبون جدد كالصين والهند والبرازيل. إن هذه التغيرات العالمية ستقود الغرب إلى "صراع مع الحضارات الأخرى واخطرها مع الإسلام والصين")صامويل هنتنجتون، 1999، ص 37(وما يعنيه هنتنغتون بذلك أن حروب المستقبل لن تكون حروبا اقتصادية ولا حروبا بين الجماعات والشعوب بل إن النزاعات المستقبلية ستتمحور حول الأمور الحضارية، خاصة بيت الغرب من جهة، والإسلام والصين من جهة ثانية.

على طريقة توماس كون في فلسفة العلم حاول هنتنغتون أن يقدم نموذجًا، يفسر على ضوئه الأحداث العالمية فكال نقدا عنيفًا لكل "النماذج" التي حاولت فهم العلاقات الدولية في نهاية القرن العشرين ومن بينها:

أطروحة نهاية التاريخ: ينتقد هنتنغتون تصور فوكوياما الذي انتابه الفرح بعد سقوط المنظومة السوفياتية إذ تصور عالما منسجمًا خاليًا من الصراعات، خطأ هذه الأطروحة يكمن في أن "وهم التوافق أو الانسجام في نهاية ذلك الحرب الباردة سرعان ما تبدد بسبب تضاعف الصراعات العرقية و (التطهير العرقي)، انهيار القانون، بروز أشكال جديدة من التحالفات والصراعات بين الدول." (صامويل هنتنجتون، 1999، ص 53)

ثالثا: التحدي الإسلامي للغرب أو الصدام الحضاري كحتمية تاريخية

يستعرض صامويل هنغنتون مراحل الصدام الحضاري في تاريخ الإنسانية، والتي مرت بتلات مراحل "مرت العلاقات بين الحضارات في مرحلتين وهي الآن في الثالثة،"(صامويل هنتنجتون، 1999، ص 80) ففي المرحلة الأولى لم تكن بين هذه الحضارات أية علاقة أو احتكاك مباشر بسبب المسافات بينها، في حين عرفت المرحلة الثانية ظهور الغرب (ق 5 م). لقد تميزت هذه المرحلة بالصراع بين الأمراء والملوك والأباطرة لبسط النفوذ والسيطرة على مساحات جديدة من الأراضي، أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وهي مرحلة الصدام الحضاري المباشر.

تركز أطروحة هنتنغتون على الحضارات والعلاقات الدولية والتنبؤ بها في المستقبل، أي على صورة هذه الحضارات بوصفها أقطابا في النظام العالمي الجديد، يتجه هنتنغتون إلى بلورة مفادها أن الحضارات تركيبات خاصة تشترط ردة فعل الجماعات البشرية التي تتبناها وان العلاقة القائمة بين هذه الحضارات هي علاقة تنافس وصراع " الشيء الذي ينتج عنه "حتما" أن الصدام المقبل سيكون بين المجموعات التي تصنف على هذا المستوى الأخير [الثقافي] أي بين الحضارة الغربية والحضارتين الإسلامية والصينية. ولما كان الغرب متقدمًا ومسيطرًا وكان كل من العرب والمسلمين والصين يطمحون إلى التقدم والرقي، فإن الصراع سيكون ثنائي الأطراف: الحضارة الغربية من جهة والحضارتان الإسلامية والكونفوشيوسية (الصينية) من جهة أخرى." (محمد عابد الجابرى، 1997، ص 101)

يرى صامويل هنتنغتون أن الحضارة الغربية هي الحضارة الوحيدة التي كان لها تأثير على جميع الحضارات الأخرى نتيجة للتوسع الإستعماري، فلا يخلوا مكان في الأرض لم يسلم من قصف الطائرات الأمريكية والفرنسية والبريطانية وما يرتبط بذلك من فرض للثقافة والهُوِيَّة الغربية، فالعلاقة إذن بين قوة الغرب وثقافته من جهة وثقافة الحضارات الأخرى من جهة ثانية هي السمة البارزة في الصدام الحضاري. وهنا يمكن أن نستحضر كلام عبد الله العروي حينما قال: "ذات يوم خرجت أوروبا البشرية من أوروبا الجغرافية واستولت تدريجيا على سائر البسيطة. ليس في هذا الأمر ما يدعو إلى الدهشة؛ إذ سبقت شعوب أوروبا في هذا الميدان شعوب كثيرة في القارات

الأخرى. السؤال المطروح هو: فيم تختلف السيطرة الأوروبية، أثناء القرنين الأخيرين، عن السيطرات المتلاحقة التي عرفها التاريخ؟ (العروي، 1992، ص 155) ذلك أن الغرب يحاول تعميم نمط معين من الثقافة عبر العولمة الثقافية والأخلاقية التي تقابل بكثير من الرفض والاستماتة. وبِناءً على ذلك يؤكد هنتنغتون أن الحضارتين الإسلامية والصينية تمثلان تحديا للغرب، لأن العلاقة بينهما كانت دائمًا متوترة وعدائية على نحو ثابت. ومن هنا فإنه يحصر الصدام الحضاري – أو هكذا يريد له أن يكون – في ثنائية الغرب باعتباره "مركزا" والإسلام والصين بوصفهما "أطراف"، وبالرغم من الاختلافات الجوهرية بين الحضارة الإسلامية والصينية، إلا أن هنتنغتون يرى أن العدو المشترك يخلق مصلحة مشتركة.

منذ سبعينيات القرن الماضي والعالم الإسلامي يعيش تحولات هامة، خاصة بعد الثورة الإسلامية في ايران وما اعقبها من صعود لقوى الإسلام السياسي فضلا عن تحولًا القوة داخل القطر العربي. أن السعي وراء امتلاك القوة العسكرية من قبل الدول الإسلامية يشكل حسب هنتنغتون تحديا للغرب بحيث انه "في عالم ما بعد الحرب الباردة تركزت جهود تطوير أسلحة الدمار الشامل ووسائل استخدامها في الدول الإسلامية وكونفوشيوسية." (صامويل هنتنجتون، 1999، ص 301) إن هذا الزعم يثير الكثيرة من علامات الاستفهام خاصة إذا ما قارنا الترسانة النووية الأمريكية مع ما للعرب من أسلحة، ذلك أن القنابل الذرية قادرة على (محو) مدن بِرُمَّتها.

إن المثير للاستغراب في أطروحة هنتغتون هو اهتمامه الكبير بالإسلام، حيث يقول في مَعْرِض حديثه عن الإسلام والمسيحية "العلاقات بين الإسلام والمسيحية سواء الأرثوذوكسية أو الغربية كانت عاصفة غالبا. كلاهما كان (الآخر) بالنسبة للآخر. صراع القرن العشرين بين الديموقراطية والماركسية اللينينية ليس سوى ظاهرة سطحية وزائلة، إذا ما قورن بعلاقة الصراع المستمر والعميق بين الإسلام والمسيحية." (صامويل هنتنجتون، 1999، ص 338) وكأني به يحاول أن ينبش في التاريخ ليسقطه على الحاضر من أجل أن يؤكد على حتمية الصراع، فهو "يعيد ترتيب الحروب والنزاعات العسكرية خلال التاريخ ترتيبًا يبرز– كما يتصور – ما يعتبره المرحلة المقبلة من الصراع، وهي صراع الحضارات."(محمد عابد الجابرى، 1997، ص 95)

يحدد هنتغتون مجموعة من العوامل التي تعمل على زيادة حدة الصراع بين الإسلام والغرب ويجملها في:

-النمو السكاني: لأنه خلق مجموعة من الشباب العاطلين والمجندين لخدمة قضايا الأمة الإسلامية.
-الصحوة الإسلامية: التي جددت الثقة في القيم الإسلامية.
-محاولة الغرب فرض ثقافته وقيمه على المسلمين الذين يقابلونها بالرفض التام.
-الإحتكاك المتزايد بين الحضارتين.

إن أسباب الصراع بين الإسلام والغرب تتمحور حول انهيار مفهوم التسامح بينهما وطالما "أن الإسلام يظل (وسيظل) كما هو الإسلام، والغرب يظل (وهذا غير مؤكد) كما هو الغرب، فإن الصراع الأساسي بين الحضارتين الكبيرتين وأساليب كل منهما في الحياة سوف يستمر في تحديد علاقتهما في المستقبل، كما حددها على مدى الأربعة عشر قرنا السابقة."(صامويل هنتنجتون، 1999، ص 343) وبعد هذه التحديدات يتجه هنتغتون نحو إطلاق بعض الأحكام المسبقة لم يثبتها التاريخ، إذ يعتبر أن الحضارة الإسلامية لا تعترف بالقيم والمؤسسات الغربية، وتبحث عن الاختلاف أكثر مما تبحث عن نقط التلاقي. وترى في نفسها نموذجًا متفوقًا على الغرب وقيمه المتفسخة والمنحطة، وهنا يخلط ربما بين مفهوم الإسلامي السياسي ومفهوم الحضارة العربية الاسلامية وعليه فإن "المشكلة المهمة بالنسبة للإسلام ليست المخابرات المركزية الأمريكية ولا وزارة الدفاع. المشكلة هي الغرب: حضارة مختلفة شعبها مقتنع بعالمية ثقافته ويعتقد أن قوته المتفوقة إذا كانت متدهورة، فإنها تفرض عليه التزامًا بنشر هذه الثقافة في العالم."(صامويل هنتنجتون، 1999، ص 352)

كما وصف هنتغتون الحضارة الإسلامية بكونها حضارة "دموية"، لا تنفك أن تخوض الحروب هنا وهناك فيعدد بطريقة متحمسة الحروب التي خاضها المسلمون ضد "الآخر"، كحربهم في البوسنة وكرواتيا ضد المسيحين، وصراعهم في تركيا واليونان وتايلاند والصين، وغيرها من الأماكن في العالم. بل إنه لا يجد حرجا في اعتبار المقاومة الفلسطينية تعديا على "إسرائيل"، ليتوصل إلى نتيجة مفادها "حدود الإسلام دموية ... وكذلك الأحشاء"(صامويل هنتنجتون، 1999، ص 418)

لكن ماذا لو قمنا بفعل مماثل لكن في العكس تمامًا، ونستعرض الحروب التي خاضها ضمن جغرافيته بدءًا من حروب الإسكندر المقدوني، إلى حروب وفتوحات الرومان، والحروب الصليبية، وصولا إلى حروب البروتستانت والكاثوليك. أعلينا أن نذكر السيد هنتنغتون بالمجازر الرهيبة التي ارتكبتها الآله العسكرية الغربية في الحربيين العالميتين والتي حصدت أرواح ما يفوق مئة مليون إنسان، أم علينا أن نستعرض عمليات الإبادة التي تعرض لها الهنود الحمر، وسكان الفيتنام، وكوريا، والعراق، وأفغانستان من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وهي تنشر الديمقراطية وتبشر بالحرية. وإذا ما " طبقنا على هذه الحروب ما طبقه هنتنغتون على الإسلام فإننا سنخرج بنتيجة واحدة تفرض نفسها، وهي أن أوربا ومعها الولايات المتحدة الأمريكية هي المسؤولة الأولى والأخيرة عن "صدام الحضارات" وإذا ما فعلنا هذا أفلا يحق هنتنجتون أن يثور ويتهمنا بالتحامل وتشويه الحقائق، وهو ما ينطبق عل تحليله لما سماه بـ(حدود الإسلام الدموية) (محمد عابد الجابرى، 1997، ص 118–119)

وجهت العديد من الإنتقادات الى أطروحة صدام الحضارات لهنتنجتون من طرف ثلة من الأكاديميين، كالباحث أمارتيا سين من خلال مقاله "الديموقراطية كقيمة عالمية" بحيث يرى سين أن التنوع هو مشترك بين ثقافات العالم، والحضارة الغربية ليست حالة إستثناء.(Sen،1999 ، pp. 3–17) كما يرى إدوارد سعيد أن فرضية صراع الحضارات هي مثال على "أنقى عنصرية مثيرة للكراهية، ونوع من المحاكاة الساخرة للعلم الهتلري الموجه اليوم ضد العرب والعالم". المسلمون(Edward W. Said، 2004، p. 293) أما اللغوي الشهير نعوم تشومسكي فقد وجه إننقاذا لاذعا إلى مفهوم صراع الحضارات باعتباره وسيلة بيد الولايات المتحدة لتبرير أي جرائم وفضائع قد تقوم بها. (TrystanCJ،2007)

المطلب الثاني: الحضارة الغربية أي مستقبل؟

يسود داخل الأوساط الأكاديمية والإعلامية والسياسية الغربية، قلق كبير بشأن مستقبل الحضارة الغربية، هذه الأخيرة التي أعلنت مع فوكوياما انتصارها التاريخي، بوصفها الحالة الحضارية الأكثر تماسكا والأكثر استقرارًا. وبعد التطورات العالمية التي حصلت على مدى العشرين سنة الأخيرة بدءًا من غزو العراق، وأزمة 2008، مرورا بـ" ثورات الربيع العربي،"

والحرب الأكروانية الروسية، الحرب السودانية، بحيث الموقف الأمريكي وصف بالضعيف في علاقته بالحرب السودانية (زياد يوسف حمد، 2024، ص 163–184) وكذلك التوتر الدائم في الشرق الأوسط. وبهذا ظهرت العديد من المراجعات والتنبؤات التي تحاول رسم ملامح مستقبل الغرب. ذلك أن أغلب المراقبين والمنظرين يرون أن الحضارة الغربية وإن بدت أكثر تماسكا واستقرارًا إلا أنها في طريقها نحو التدهور.

أولا: الحضارة الغربية–الإرهاب ونضوب الموارد الطبيعية

1: مشكلة الإرهاب

يواجه الغرب منذ بداية الألفية الجديدة مشكلة الإرهاب، باعتبارها مشكلة تطرح نفسها بشدة ذلك أنها تقوض "السلم العالمي" وفي ظل ما يجري في العالم العربي من حروب واقتتالات وصراعات دموية، لم يسبق لها مثيل في التاريخ فقد لا تجد – على طول الجغرافيا العربية مكانا آمنا بدءًا من ليبيًا إلى مصر مرورًا باليمن، وصولا إلى سوريا والعراق. إن هذا الوضع الذي أفرزته " ثورات الربيع العربي" قد انعكس سلبا على الغرب، على اعتبار انه يساهم بشكل وبآخر في زيادة الإرهاب. تعرضت العاصمة الفرنسية باريس مساء 13 نوفمبر 2015 لأقوى هجوم "إرهابي" في تاريخها، فقد " لفت [هذا الهجوم] الانتباه مرة أخرى إلى الغيوم التي تلبد سماء القرن الواحد والعشرين والتي تحجب شعاع الأمل الذي بدا لأوربا بعد الانهيار الشيوعي.

وبهذا يتضح لنا جليا مدى القلق الدائر في الغرب بدءًا من توالي الهجمات الإرهابية التي لم يكن هجوم باريس أولها، فقد استفاق الأمريكيين صبيحة 11 سبتمبر 2001 على "أكبر هجوم إرهابي في التاريخ" والذي قض مضاجع الغرب حينها.

هذا ويعزى انتشار الإرهاب بهذه الطريقة المروعة إلى "فشل الغرب في إنشاء بيئة دولية آمنة حاملة للقيم والمبادئ التي قامت عليها الحضارة الغربية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي." وقد نتج عن ذلك تنامي قِوَى الإرهاب التي تعتبر عملياتها في الغالب ردة فعل على السياسات الغربية، التي تفقر الدول وشعوبها وتنهب خيراتها ومواردها. يتحمل الغرب عمومًا والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع في العالم، ومسؤولية ما ستؤول

إليه في المستقبل، فالولايات المتحدة الأمريكية لا تكف عن التدخل في شؤون الآخرين فمنذ حرب الفيتنام وهي تشعل الحروب هنا وهناك، تارَة عن طريق التدخل العسكري المباشر كما حدث في العراق، وتارَة عن طريق تسليح القِوَى المعارضة للحكومات كما حدث في ليبيَا وسوريا في السنوات الأخيرة.

2 نضوب الموارد الطبيعية والتفاوت الطبقي.

نشر موقع bbc futur مقالًا للكاتبة الصحفية رايتشل نوير تحاول فيه استشراف المستقبل، حيث تعتمد في ذلك على أراء الخبير الاقتصادي بنيامين فريدمان والذي " شبه المجتمع الغربي بالدراجة الثابتة التي يسير عجلاتها النمو الاقتصادي، فإذا ما تباطأت هذه الحركة، الدافعة إلى الأمام أو توقفت، ستهز ركائز المجتمع مثل العدالة الاجتماعية والتسامح وقَبُول الآخر."(Rachel Nuwer)،(2017 ليتحول العالم بعدها إلى ساحة للصراع تتنازع عناصره الموارد المحدودة لكوكب الأرض، ما سيؤدي في نهاية المطاف إلى انهيار تام للمجتمع.

ولتحديد ما ستؤول إليه الأوضاع في المستقبل يمكننا أن نعتمد على ما يتحقق في مجال الدراسات التاريخية وعلم الأنتربولوجيا والرياضيات وفي هذا الإطار "يستعين صفا موتيشاري، عالم أنظمة الكومبيوتر في جامعة مريلاند، بنماذج الكومبيوتر في فهم الآليات التي قد تأدي إلى استمرارية المجتمعات المحلية أو العالمية أو انهيارها."(Rachel Nuwer)،(2017 ولقد حدد هذا العالم وزملاؤه في البحث عاملين أساسيين يساهمان في انهيار المجتمعات وهما: الضغط على الموارد الطبيعية والتفاوت الطبقي.

طور موتيشاري نماذج رياضية حول الكتل البشرية كما لو كانوا "مفترِسين" والموارد الطبيعية كما لو كانوا "مفترَسين" ثم قام بتقسيم مجموعة المفترِسين إلى مجموعتين غير متكافئتين، أي نخب ثرية وأفراد أقل ثراءً، فأظهر نموذجه أن عدم المساواة الشديد أو نضوب الموارد الطبيعية يمكن لكل منهما أن يدفع المجتمعة ناحية عدم الاستقرار، وعندما يتزامن الأمران يصبح الانهيار أمرا حتميًا. إن التهديد البيئي لكوكب الأرض – والذي يتحمل الغرب مسؤوليته بشكل خاص – ما زال قائمًا بل ويشكل خطرا محدقًا بالإنسانية، ذلك أن الاحتباس الحراري في تزايد مستمر ما

ينعكس سلبا على منسوب البحار والمحيطات عن طريق إذابة الجليد في القطبين الشمالي والجنوبي علاوة على انقراض الأنواع التي كان آخرها وحيد القرن.

ولعل الأمر الأكثر حساسية والذي قد يعجل انهيار المجتمعات هو التفاوت الطبقي الآخذ في الاتساع" فمن شأن النخب الذين يكنزون الأموال والموارد ولا يتركون للعوام الذين ويفقونهم عددا ويوفرون لهم الأيد العاملة، إلا اليسير وربما لا شيء، أن يقودوا المجتمع نحو عدم الاستقرار وبالتالي الانهيار." Laura Spinney)،(2018 إن هذا العامل حسب دراسة موتيشاري سيدفع الطبقة العاملة إلى اضمحلال يعقبه انهيار تام للنخب الحاكمة بسبب غياب العمالة. والشواهد على ما سبق كثيرة خاصة فيمَا يحدث حولنا ذلك أن تداعيات الأزمة تطال دولا فقيرة في العالم كسوريا مثلا التي "زادت فيها معدلات الخصوبة إلى حد غير مسبوق وتسارع على إثر ذلك النمو السكاني. وادت موجة الجفاف الحادة التي ضربت البلاد في أواخر عام 2000، جنبا إلى جنب مع نقص المياه الجوفية إلى تقليص الإنتاج الزراعي."Rachel Nuwer)، (2017 ليتدفق في أعقاب هذه الأزمة سكان القرى إلى داخل المدن، وارتفعت مع هذا التدفق أعداد العاطلين عن العمل لتفوق أعدادهم الخدمَات والموارد المحدودة للدولة، وينفجر الوضع بعدها الذب سرعان ما تحول إلى حرب أهلية نشبت على إثرها صراعات مذهبية وطائفية وأضحت البلاد أرضا خصبة للتطرف والإرهاب، لينهار بعدها المجتمع بشكل تام. وعليه فإن انهيار المجتمع السوري بنظر توماس هومر ديغسون رئيس الأنظمة العالمية لجامعة واترلو بكندا كان محصلة لمجموعة من العوامل التي يسميها "الضغوط التراكمية" لأنها تتجمع ثم تنفجر فجأة بطريقة يصعب السيطرة عليها فتتقل كاهل أي آليات تحافظ على استقرار المجتمع وتماسكه. يتوقع هومر ديغسون أن انهيار المجتمعات الغربية سيسبقه انحسار في الموارد الطبيعية والبشرية في البلدان التي تشهد صراعات دموية والتي تعرف تمزقا داخليًا، الأمر الذي سيدفع سكان هذه الدول نحو البلدان الأوروبية الآمنة هربا من الموت.

ستقابل المجتمعات الغربية موجات الهجرة هاته بإنفاق مليارات الدولارات على إقامة جدران ونشر قوات وطائرات لمراقبة الحدود، وتشديد الإجراءات الأمنية على كل من يدخل البلاد. يقول ديغسون:" إنه كلما زاد سخط الناس وخوفهم في أي بلد بالعالم، زاد تعلقهم بالجماعة التي ينتمون

إليها سواء كانت دينية أو قومية. وسيلجأ الناس إلى إنكار الحقائق مثل ظهور مؤشرات الانهيار ورفضها حتى لو كانت مثبتة بالأدلة. ولو أقروا بوجود المشكلات سينحون باللائمة على كل منهم خارج مجموعتهم التي ينتمون إليها، وسيزداد الاستياء والغضب.(Rachel Nuwer،(2017

المطلب الثالث: نقد فوكوياما.

بعد انهيار الاتحاد السوفياتي تعاظمت نداءات الإدارة الأمريكية، بنشر الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان وكذلك سعيها المتواصل لتطبيق النظام الديمقراطي في دول العالم. والذي نظر إليه على أنه أفضل النظم السياسية على الإطلاق. أحدث فوكوياما بأطروحته هاته جدلا واسعًا حيث نوقشت آراؤه في مشارق الأرض ومغاربها، وعلى قدر الشهرة التي نالها وجهت إليه العديد من الانتقادات والمؤاخذات، وسنحاول في هذا المحور أن نقف عندها لنتبين مكامن القوة والضعف في أطروحته.

عمل هيغل جاهدا على بناء نظرية فلسفية في التاريخ يكون فيها الواقع تابعا للعقل والفكر، حيث انطلق في ذلك من واقع ألمانيا المجزأ في محاولة منه لتغيير هذا الواقع. وعندما اجتاح نابليون بونابرت بلاده في" معركة ييننا 1806" ، بدت له ألمانيا تتحرك وتتوحد وشعر بوحدة التاريخ في أقصى حالاته، واعتبر أن ما تحقق في أوربا بعد حروب نابليون يمثل نهاية التاريخ وظهور الدولة المنسجمة. هذه الأخيرة التي هي حسب هيغل " وحدة دراسة التاريخ، إنها الحرية في صورتها الواقعية، إنها تمثل تموضع الروح، أو الفكرة الإلهية المتجسدة في الأرض، كل نشاط بشري وكل عمل فكري إنما يتحقق من خلال الدولة وأنظمتها، ثم فهي الصورة النهائية التي عندها تشكل التاريخ."(أحمد محمود صبحي، 1975، ص 210)

غير أنه وبالرغم من ظهور الدولة فإن التاريخ لم ينته واستمرت التناقضات داخل المجتمعات الأوربية، خاصة بعد ظهور الماركسية التي تمثل النقيض الفكري والأيديولوجي لليبيرالية. وبعد انتصار الغرب في الحرب العالمية الثانية رأى الكسندر كوجيف في هذا الانتصار عودة للانتصار النابليوني، حيث برزت الدولة العالمية في نَظْرَة اكثر انسجامًا في سياقها الرأسمالي وتجسيدًا عمليًا للروح المطلق.

وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي عادت نظرية نهاية التاريخ لتنبعث من جديد مع فوكوياما، الذي اعتقد أن التاريخ قد شارف على نهايته، لأن هناك توجها عالميًا نحو المبادئ الاقتصادية والسياسية الليبيرالية. إن الانتقادات التي وجهت لتصور فوكوياما كثيرة جدا بدءًا من انتقاده لنفسه في كتابه" مستقبلنا بعد البشري عواقب ثورة التقنية الحيوية "حيث يقول:" خلال تأملي في المقالات العديدة التي تناولت مقالتي الأصلية يبدوا لي أن الحجة الوحيدة التي لم يكن من الممكن دحضها هي أنه لا يمكن أن تكون هناك نهاية للتاريخ ما لم يكن هناك نهاية للعلم."(فوكوياما، 2006، ص 7) لقد فسر فوكوياما حركة التاريخ من خلال محركين أساسين: الازدهار في العلوم الطبيعية وصراع الرغبة من أجل الاعتراف. الأمر الذي يعني عند فوكوياما أنه يجب على الدولة أن تعتمد على التنمية، والعلوم الطبيعية من أجل تطوير الاقتصاد وعولمته، من أجل أن يحصل الفرد على الاعتراف من الآخرين.

إن الاكتشافات العلمية الجديدة التي تظهر يوما بعد يوم، تنفي نهاية العلم وهذا بدورة ما ينفي نهاية التاريخ، ومادام العالم مقسما إلى عالم منتج للتكنولوجيا وآخر مستهلك لها، فإن العدالة بين البشر ستبقى هدفا صعب المنال شعرا غير قابل للتحقق.

كما يشير فوكوياما صراحة إلى المساوئ الاقتصادية البنيوية للديموقراطية الغربية إذا يقول: "أن تكون فقيراً يعني أن تصبح لا مرئياً للبشر من حولك، وإهانة أن أكون لا مرئياً أسوأ من الفقر نفسه(fukuyama, 2018, p218).

اختص الدكتور مطاع صفدي بتقديم النسخة المترجمة من كتاب" نهاية التاريخ" لفوكوياما، ويعلق على هذا النص قائلًا:" فلقد انتزع من الأفلاطونية الترسيمة التي أتى بها مؤسس العقلانية الإغريقية أفلاطون، ليصور من خلالها صراع الميول والقيم في ذات الفرد الإنساني، واختار جانب الميول، أو ماكان أطلق عليه أفلاطون التيموس (thimos) وهو هذا الجانب الراغب في النفس والطامح إلى تأكيد الذات، وانتزاع اعتراف الأخرين بها.(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 8) وقد أوضح فوكوياما معنى الصراع من أجل الاعتراف من خلال العودة إلى هيغل وتفسيراته عن "الإنسان الأول"، الذي كان يعيش في بداية التاريخ مع مختلف الكائنات الأخرى ويتقاسم

معهم نفس الرغبات والحاجيات، غير أنه يختلف عنهم اختلافًا نوعيًا من جهة أنه يصبوا إلى انتزاع اعتراف الآخرين به.

ويكمن خطأ فوكوياما حسب مطاع صفدي في أنه اعتقد أن هيغل تبنى التيموس بشكل معزول عن باقي قِوَى النفس الأخرى، وخاصة منها الوعي "ولم يمر في العملية التاريخية الجدلية الكبرى، سواء في صورتها التبسيطية والفكروية، أو في ملائها الأنطولوجي المعرفي الكبير عند أستاذ الديالكتيك الحديث هيغل، إلا جانب الرغبة في تأكيد الذات. لقد أعجب فوكوياما بالتيموس، كجانب مجزأ من النفس، ومن بنية المجتمع، ومن حركة التاريخ، وصعده إلى مستوى أقنوم الأقانيم. اختزل به تاريخ الجدل الهيغلي. وقدمه على أنه البديل الحيوي من النفعية الأنكلوسكسونية والبراغماتية في آن معا."(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 8)

إن فكر هيغل ليس فكرا مبسطًا ينظر إلى الأشياء متفرقة وفي تتابع يخل بعلاقاتها ووحدتها، فهو يستطيع أن يلتقط المفاهيم في ترابطاتها وتعقدها، ويستطيع في الآن ذاته أن يحافظ في عرضه على الترابط والتعالق والتشابك الذي يجمع بين الأفكار والمفاهيم. لقد كان يفكر بحس الأضداد شأنه في ذلك شأن هيراقليطس، ومعلوم أن هيغل انطلق من واقع ألمانيا المجزأ والمقسم، أما فوكوياما فإن خطابه يتميز "بالهوس" المبالغ فيه على نزعة الراغبة بالاعتراف، وبالمقابل تجاهل رغبة المساواة مع الآخرين، فقد جرى تضخيم الأولى وتغييب الثانية. لم يستطع أن يقيم توازنا بين مفهومي تحقيق الذات وبين احترام الآخر."(إبراهيم، عبد الله، 2010، ص 57)

فوكوياما تعامل مع فكر هيجل بطريقة انتقائية، إذ كان يقوم باستعارة ما يتلاءم مع أفكاره فقط، أي قام بتجزئة أفكار هيجل، هذا من جهة، ومن جهة ثانية جعل كوجيف وسيطاً بينه وبين هيجل. وبحسب شادية دروري فإن كوجيف لم يكن أميناً في تناوله لأفكار هيجل، إذ تقول: يُتهم كوجيف بعدم الأمانة في دراسته لهيجل، فبعكس جان هيبوليت كان كوجيف يحتقر الدراسة والبحث، وكان اهتمامه بهيجل بسبب اعتقاده بأن المشكلات التي يعالجها هي أكثر المشكلات قربًا من عصره، ورغم أن كوجيف يعد واحدًا من أكثر شارحي هيجل إلا أنه لم يقبل بأن يكون معلِّقًا أو شارحًا(شادية دروري، 2006، ص 28)

هذا ولا ترقى أطروحة فرانسيس فوكوياما إلى المنعطفات الفلسفية الكبرى التي حققها هيغل وهوبس وروسو ...، على اعتبار أنه لا يروم تأسيس مذهب فلسفي متماسك ومتكامل، بقدر ما أنه لا يدلي سوى بمجموعة من التحليلات الأقرب إلى السجال اليومي منها إلى الخطاب الفلسفي. يجنب فوكوياما نفسه" عناء الدخول في غابة المفهمة الفلسفية التي اعتمدها كل من اتجاهي المدرسة الطبيعانية، وقد حاول أن يصعد فوق الغابة تلك، ممتطيا صهوة نصف أفلاطونية، ونصف هيغيلية وكذلك دون أن يحمل نفسه هنا أيضا أية مسؤولية من المفهمة الفلسفية العليا بتشعباتها وغناها."(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص 9)

وفي بداية القرن الحادي والعشرين ظهرت مجموعة من المشاكل التي عصفت بتصور فوكوياما وبالفكر الليبيرالي برمته، افترض فوكوياما أن الإقتصاد والعلم هما المحركان الرئيسيان للتاريخ، إلى جانب رغبة الإعتراف طبعا، كما افترض أن دول نهاية التاريخ سوف تنعم بالحرية والأمن والمساواة والاستقرار، غير أن افتراضه هذا سرعان ما تبدد وانكشف زيفه. ولو انتظر فوكوياما إلى غاية عام 2008 لشاهد الأبناك الأمريكية تنهار، والشركات الكبرى تسير العمال، والديون تتضخم، والاقتصاد يتراجع إلى مستويات قياسية، والديمقراطية الغربية مهددة... ولما قال بنهاية التاريخ.

حري بنا أن نؤكد في الأخير على أنه وبالرغم من قدرة فوكوياما عل متابعة العديد من المجالات والاختصاصات المعرفية واطلاعه الواسع، سواء في فلسفة التاريخ أو الفلسفة السياسية، أو الاقتصاد أو العلم، إلا أن تصوره سيبقى تصورا أيديولوجيًا محضا" فأي تيموسية حيوية هيغيلية أو نتشوية يمكن أن تصف أحوال ما كان يسمى بالمعسكر الشرقي من موسكو إلى براغ إلى زغرب. وأية "نهاية للتاريخ " تلك التي تتمتع بها أمريكا وحدها من دون العالم، وأي"نظام عالمي جديد" يلف المعمورة المهددة باللبنة والبلقنة والصوملة، وبكل "وحوش التاريخ" التي يثبت هذا التاريخ نفسه أنه لم يتجاوزها قِيد أنملة، وانه لا يزال أسير حديقة حيوناته. أو وحوشه الأوائل، ولم يخرج منها بعد حتى إلى عتبة "الدولة الشمولية المنسجمة"، إلا عبر أوهام الأيديولوجيات المنقضية والآتية"(فرانسيس فوكوياما، 1993، ص12).

إن الفصل بين إنسانية ما قبل التاريخ، وإنسانية ما بعده هو فصل لتكريس التمييز بين إنسانية خسرت نهاية التاريخ، وأخرى ربحتها لتنعم بالأمن والاستقرار والديموقراطية وكل خيرات هذه النهاية. فأي نهاية للتاريخ وتناقضات العالم تتزايد يومًا بعد يوم؟ وأي نهاية للتاريخ والإمبريالية تنهب خيرات الشعوب؟ وأي نهاية للتاريخ والإنسانية مهددة بكل الوحوش والبرابرة؟ إن الموعودين "بجنة نهاية التاريخ" هم القبيلة البيضاء والشقراء، أما ما دونهما أي بقية العالم فلم يتبق لهما سوى الركون إلى ردهات التاريخ.

خاتمة

يستهدف فوكوياما "تسويق وهم" مفاده أن العالم الغربي دخل مرحلة الفردوس المابعد تاريخي من الازدهار والأمن، وتحقيق السلام الدائم الذي دعا إليه كانط. والواقع على العكس تمامًا فأمريكا لا زالت غارقة في التاريخ وتمارس قوتها وجبروتها في عالم هوبز الفوضوي. وفي ضوء أطروحة نهاية التاريخ بات شبه معروف أن طور الليبيرالية الجديد أنتج مجموعة من الإشكاليات السياسة والإديولوجية منها مثلا: استبدال مبدأ عدم تدخل بالقوة في الشؤون الداخلية للدول بمبدأ التدخل العسكري المباشر لحسم النزاعات والحروب، وبهذف إسقاط الأنظمة السياسية التي تشكل تهديدًا للمصالح الأمريكية.

إن التاريخ لم ولن ينتهي في ظل مشكلات الفقر والمرض والتلوث والفوارق الاجتماعية والقهر الذي يعاني منه الإنسان من جهة، والمشكلات التي تواجهها الديموقراطية الليبيرالية نفسها كالأزمات المالية وزيادة الفوارق الإجتماعية بين البورجوازية والعمال جنبا إلى جنب مع ارتفاع معدلات الجريمة والإرهاب من جهة أخرى. إن الإنسان لا يمكن أن يعيش دون إديولوجية أو عقيدة دينية، وحتى لو افترضنا أن نهاية التاريخ طرح نظري وارد إلا إن محاولة بلوغ هذه النهاية تظل مستعصية. فالتاريخ الذي أبى أن ينحصر في حدود الإمبراطورية الرومانية، لأن هذه الإمبراطورية لا تمثل كل التاريخ، والذي تجاوز إرادة نابليون بونبارت، لأنه أقوى منها، الذي أدخل هتلر وموسوليني، وستالين في عداد سفاحي التاريخ، هو نفسه الذي سوف يتجاوز أمريكا وغطرستها.

أهم النتائج:

-هناك خلط وإرتباك وانتقائية في فهم فوكوياما لرؤية هيجل.

-خطاب فوكوياما يتميز "بالهوس" المبالغ فيه على نزعة الراغبة بالاعتراف، وبالمقابل تجاهل رغبة المساواة مع الآخرين.

-بالرغم من قدرة فوكوياما على متابعة العديد من المجالات والاختصاصات المعرفية واطلاعه الواسع، سواء في فلسفة التاريخ أو الفلسفة السياسية، أو الاقتصاد أو العلم، إلا أن تصوره سيبقى تصورا أيديولوجيا.

-لا ترقى أطروحة فرانسيس فوكوياما إلى المنعطفات الفلسفية الكبرى التي حققها هيغل وهوبس وروسو.

-ومع ذلك تعتبر أطروحة فوكوياما بمثابة محفز دائم لإثارة النقاش حول مستقبل العالم.

References:

Al-Jabri, M. A. (1997). Contemporary theory (1st ed.). Center for the Study of Arab Unity.

Al-Zaid, M. (2006). An introduction to the philosophy of history. Manahij

Cornforth, M. (1990). Introduction to dialectical materialism. Dar al-Farabi.

Drury, S. (2006). Modern postmodern mysticism. Dar al-Hiwar.

Edward W. Said. (2004). From Oslo to Iraq and the Road Map. Pantheon.

Fukuyama, F. (1993). The end of history and the last man. National Development Agency.

Fukuyama، F. (2006). Our posthuman future: The ecological revolution (1st ed.). Emirates Institute for Strategic Studies and Research.

Fukuyama، F. (2018). Identity. Farrar، Straus and Giroux.

Hamad, Z. Y. (2024). The Sudan Civil War in 2023: An analysis of neighboring countries، regional and international positions. Arab Democracy Institute، 163-184.

Hegel. (2007). Logic in history (3rd ed.). Tanweer Publishing Company.

Hegel. (2007). Philosophical encyclopedia of science. Tanweer Publishing Company.

Huntington، S. (1999). The clash of civilizations: Remaking the world order.

Ibrahim, A. (2010). Midwest. Dar al-Aman.

Laroui, A. (1992). Our culture in the light of history (3rd ed.). Cultural Institute.

Laura Spinney. (2018). End of days: Is Western civilisation on the brink of collapse? New Scientist. https://www.newscientist.com/article/mg23731610-300-end-of-days-is-western-civilisation-on-the-brink-of-collapse/

Rahi, Q. N. (2017). The end of history: A critical analytical study. Islamic Center for Strategic Studies، Abbas Holy Shrine.

Rachel Nuwer. (2017). How Western civilisation could collapse. BBC NEWS. https://www.bbc.com/future/article/20170418-how-western-civilisation-could-collapse

Rhee, J. & Urmson, J. O. (2013). Concise encyclopedia of philosophy (1st ed.). National Center for Translation.

Samuel P. Huntington. (1993). Samuel P. Huntington: The Clash of Civilizations? FOREIGN AFFAIRS. https://www.foreignaffairs.com/articles/united-states/1993-06-01/clash-civilizations

Sen, A. K. (1999). Democracy as a Universal Value. Journal of Democracy, 10(3), 3–17.

Sobhi, A. M. (1975). On the Philosophy of History. University Cultural Foundation.